فلسفة الحياة والموت في شعر الشريف الرضي

الاستاذ المساعد الدكتور
حافظ كوزي المنصوري
جامعة الكوفة / كلية الآداب

فلسفة الحياة والموت في شعر الشريف الرضي

الاستاذ المساعد الدكتور
حافظ كوزي المنصوري
جامعة الكوفة / كلية الآداب

تمهيد:

من المشكلات الرئيسة التي واجهت الإنسان وشغلت تفكيره في العصور كافة، مسالة الحياة والموت وما يؤول إليه مصير الإنسان بعد موته، ولعل حادث الموت أكثر تأثيرا في تفكير الإنسان ولاسيما في العصور القديمة التي سبقت الإسلام وذلك لان الموت في مفهوم إنسان تلك العصور يعني الفناء، إذ كان الاعتقاد السائد في العصر القديم انّ الموت هو نهاية الحياة، وعلى الإنسان ان يقاوم هذا الأمر بكل ما استطاع من قوة، فراح يصارع الطبيعة وطاقاتها القوية الفاعلة وكان ـ أي الإنسان ـ هو المغلوب دائما، إذ لم يفلح في اغلب الأحيان في مقاومة الطاقات الجبارة الهائلة التي تملكها الطبيعة متمثلة في الرياح، والمطر والفيضانات والسيول وغيرها، تلك التي كانت تقضي على حياة الكائنات ومنها الإنسان، وراح نفر بعجزه أمام تلك القوى الجبارة، لا بل راح يحسد المعالم الثابتة أمام جبروت الطبيعة كالجبال والأنهار والطلول ونحوها، وراح يقارن بين ثباتها واستقرارها وبين عدم ثبات الإنسان واستمراره في هذه الحياة. وقد غاب عن تفكيره ان الحياة والموت يشكلان نسقا دائريا، فبعد الموت حياة إذ يفضي كل منهما إلى الآخر[١].

وإزاء هذا الشعور تجاه الموت والبرم بحقيقته وجدناه يتمسك بالحياة محاولا البقاء والخلود ما امكنه ذلك وبأي شكل من أشكال الحياة، ولو كان ذلك في جوف بهيمة، وقد عبّر (جالينوس) عن ذلك، إذ كان يفضل البقاء على الموت، ولو قدر له ان يعيش في بطن بغلة ورأسه خارجها[٢] وقد عبر القرآن الكريم عن هذا المعنى بقوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[٣] فذكر الحياة نكرة ولم يقل (على الحياة) ومعنى هذا أنهم يحرصون على أي نوع من أنواع الحياة مهما كان رديئا ومتدينا.لان الموت عندهم شيء مخيف ورهيب فهو عكس الحياة تماما بما فيها من ملذات ومنافع ومتاع.

وفكرة الفناء بعد الموت موجودة في الفلسفات القديمة كلها (فهوميروس) يرى ان الإنسان بعد موته يفنى ولم يبقَ من صفاته الجسمية إلا (الخيال) الذي يشبه الكائن الحي ولكنه لا يمكن الإمساك به وهو ضعيف كالظل واخرس[٤] وهو تصور أسطوري إذ يجعل (هوميروس) ظل (أخيل) يعبر عن وجهة النظر هذه قائلا: أناشدك

يا (اوديسيوس) الشهير إلا تتحدث برفق عن الموت فلئن تعيش على الأرض عبدا لآخر.. خير من أن تحكم كملك لا ينازعه احد في مملكة الأشباح اللاجسدية[٥].

وفي ظل هذا الخوف من الفناء بعد الموت راح الإنسان يفتش عن الخلود وسره ولنا في الأساطير القديمة وفي ملحمة جلجامش خير مثال إذ راح جلجامش يفتش عن الخلود بعد ان أفزعه موت صديقه ((انكيدو))[٦]

وكذا الحال عند الجاهليين إذ نرى الشاعر الجاهلي قد وقف من الموت وقفة تأمل وانتهى به الأمر إلى ان الموت حقيقة محتومة لابد منها فلم يكن يتصور وجوده ولا حياته بعد الموت[٧] وهذا يعني ان الموت نهاية الكائن الحي ولا حياة بعده وان جسد الإنسان يتفسخ وينتهي، وكان يدهشه بقاء الأشياء والجمادات والأطلال، فهي أكثر ثباتا في هذه الحياة من الإنسان، وان كانت هناك صور مختلفة من الفناء في الأشياء المختلفة وعلى هذا الأساس وهذا اليأس قرر ترك البكاء والدموع والاستسلام للموت والقدر[٨] وبغيه إيجاد مسوغ لهذا الفناء وهذا العدم فقد اسند القوة التي تتحكم بحياة الإنسان إلى الدهر الذي يمثل صورة من صور الزمان[٩].

وظلت هذه الفكرة فكرة الفناء والعدم تراود تفكير الجاهلي لذا نراه يستسلم لفكرة القدر فشعر ان وجوده وجسده وجود وقتي زائل وان الحياة في ذاتها ومن ثم هو نفسه محض وهم[١٠].

ومقابل هذه الحياة التي باتت تربكه والمصير المحتوم والخوف من ذلك تمسكه بالحياة الدنيا نجده يلجأ إلى التمسك ببعض المعتقدات والخرافات والأساطير، أملا منه بالبقاء لحقبة أطول وهذا ما أكده الحطيأة بقوله[١١]:

لا يَزجُرُ الطير ان مرّت بـه سُنُحاً ولا يُفـيضُ علـى قَسـمٍ بـازلامِ

وظلت النظرة للحياة والموت في نظر الجاهلين هكذا وان كانت هناك بعض المعتقدات الصحيحة المخالفة لهذه النظرة، حتى جاء الإسلام بدينه الحنيف الذي أجاب على كثير من هذه التساؤلات إجابات دقيقة معتمدة العقل والعلم وكان مصداق ذلك في كثير من آيات القرآن، كقوله تعالى: ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾[١٢].فعبر عن الموت بأنه خَلق وقرنه بالحياة وليس عدما وفناء وعملية الخلق تعني إيجاد شيء من شيء..وكذلك في قوله تعالى: ﴿**وَلاَ تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ اللّهِ أَمْوَاتاً بَلْ أَحْيَاء عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ**﴾[١٣] .وقوله : ﴿**وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا**

﴿يَعْلَمُونَ﴾[١٤].ونجد هذا المعنى في قول الرسول(عليه السلام): (الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا..)[١٥].

والموت الذي يخيف الإنسان هو في حقيقة الأمر اكبر ضمانة للسلوك الإنساني الصحيح في الحياة الدنيا وذلك لان بعد هذه الحياة الدنيا حياة أخرى فيها عقاب وثواب ومفهوم العقاب والثواب هو الميزان الصحيح الذي بوازن به تصرفات البشر ويحد من غيهم وتماديهم لان الحياة الأبدية الباقية تكون بعد الحساب والثواب وهي الحياة الأخرى في جنة أو نار فالموت في ضوء النظرية الإسلامية القانون الدقيق الذي ينظم سلوك البشرية وتصرفاتها.

والإنسان يعيش موتا دائما مستمرا لأنه في مواجهة مستمرة مع الحياة لان الموت ظاهرة من ظواهر الحياة [١٦].

لقد أثرت الفلسفة الإسلامية ونظرتها إلى الحياة والموت في تفكير الإنسان المسلم والشعراء خاصة فراحوا يتعاطون المفاهيم الإسلامية في شعرهم ولاسيما ما يخص مصير الإنسان بعد الحياة الدنيا فكانت لهم آراء مبثوثة في شعرهم حول هذه المسألة المهمة وكان شاعرنا الشريف الرضي محمد بن أبي احمد الحسين بن موسى (ت ٤٠٦هـ) وهو من شعراء القرن الرابع للهجرة القرن الذي نضجت فيه المفاهيم الفلسفية كان له القدح المعلى في الإدلاء برأيه في شعره إذ ضمنه مفاهيم كثيرة تتعلق بفلسفة الحياة والموت إذ ينفذ الشاعر من هذه الحادثة الفردية (الموت) إلى معان فلسفية عميقة فإذا نحن نجوب معه في فلسفة الوجود والعدم والخلود [١٧]

وسنعرض آراء الشريف الرضي في مسألة الحياة والموت في المباحث الآتية:

المبحث الأول

آراؤه في الخلق والحياة

من الآراء التي ورد ذكرها في شعر الشريف الرضي، مسألة خلق الإنسان والمادة التي خلق منها وجوهرها يقول في قصيدة يرثي بها صديقا له وقيل أنها في الطائع واصفا الموتى في قبورهم[١٨] :

أكلتهم الأرض التي ولدتهم أكل الضروس حلت له اكلاؤه

فهو يؤكد في قوله :(الأرض التي ولدتهم...) ان الإنسان مولود من هذه الأرض وان أصله من نطفة من تراب وماء فالتراب الذي هو مادة الأرض هو أساس المادة المخلوق منها الإنسان وفي قوله هذا إشارة إلى آيات قرآنية كثيرة أكدت هذا

المعنى منها قوله تعالى: ﴿خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ﴾[١٩] وقوله: ﴿إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ﴾[٢٠] وقوله : ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنتُم بَشَرٌ﴾[٢١] .
وآيات أخرى تشير إلى هذا المعنى[٢٢].

وفي البيت نفسه إيجاز لفلسفة إسلامية وهي ان الإنسان مخلوق من هذه الأرض وسيعود بعد موته إليها إذ ستتحد أجزاؤه وأعضاؤه مع ذريات التراب وتتحول بعد التفسخ إلى تراب. وما يبقى إلا الروح التي سترجع إلى بارئها، وهذا ما أكده في قوله السابق: ((أكلتهم الأرض التي ولدتهم...))

وهذا يعني ان الأرض تأكل أبناءها الذين ولدوا من تربها ويشبه هذه العملية بالناقة الضروس التي يحلو لها أكل العشب.

الشريف الرضي في قوله هذا يشير إلى الآية القرآنية التي تؤكد هذا المفهوم وهو قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾[٢٣] هذه الآية التي تحتوي على رؤية إسلامية كاملة تخص خلق الإنسان وموته وبعثه من جديد فهو تحتوي على هذا النسق، خلق، ثم موت ثم بعث من جديد وحياة أخرى جديدة.

ويكمل الشريف الإفصاح عن النظرية الإسلامية في الخلق والحياة والبعث مارة الذكر في قوله الذي يصف فيه الموتى في قبورهم وهم مسندون على جنوبهم ذاكرا انتظارهم يوم المعاد أي يوم القيامة قائلا[٢٤]:

ومسندين على الجنوب كأنهم ... شربٌ تخاذل بالطلا أعضاؤه[٢٥]
تحت الصعيد لغير إشفاق إلى ... يوم المعاد تضمهم أشاؤه

فهؤلاء الموتى موضوعون على جنوبهم وكأنهم جماعة الشاربين الذين تخاذلت أعضاؤهم، يضمهم الصعيد (التراب) ويحفظهم إلى اليوم الموعود (يوم المعاد). إذ تنتظر هذه الأرواح يوم البعث لتقف أمامه للحساب والعقاب والتراب (﴿يَوْمَ لَا يَنفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ۞ إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾[٢٦] إذ وصف الله سبحانه وتعالى هذا اليوم بقوله: ﴿وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۞ إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾[٢٧] . والشريف في ذكره ليوم (المعاد) يؤكد أصلا من أصول الدين الإسلامي والفلسفة الإسلامية المتعلقة بالبعث والحساب والحياة الآخرة وهو (المعاد) ويؤكد ذلك مرة ثانية بقوله:

كيف لا يطلب الحمام عليل ... حكم الدهر فيه يوم المعاد

ويستمر الشريف الرضي في الإدلاء بآرائه عن الخلق والبعث والنشور والحساب ويوم المعاد متكئا على النظرية الإسلامية المنابعة من القرآن دستور الإسلام،فيذكر لنا حساب البرزخ قائلا[٢٨]

ولقد مررت ببرزخ فسألته أين الأولى ضمتهم أرجاؤه

فيشير إلى حساب البرزخ الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِن وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾[٢٩] .

وهو يعني المدة بين مفارقة الإنسان للحياة الدنيا وبين يوم الحساب وقيام الساعة وفي هذه المدة يحاسب الميت في قبره والبرزخ كما ورد في معناه هو الحاجز أو الحائل بين الشيئين فهو هنا الحاجز بين الحياة الدنيا والآخرة كما ورد في قوله تعالى ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾[٣٠] والمراد بهذا البرزخ عالم القبر وهو عالم المثال الذي يعيش فيه الإنسان بعد موته إلى قيام الساعة[٣١].

وبعد البرزخ يأتي يوم البعث والنشور ويكون الحساب فأما في جنة وأما في نار يؤكد الشريف هذا المعنى ويقول في أبياته الآتية أن الإنسان كالشجرة الخضراء التي تُقصف أوراقها وتسقط وهو مخلوق وكأنه مرعى للردى فلا تعجب أيها الإنسان من الفناء بل العجب من البقاء، لان الفناء هو النتيجة الحتمية للإنسان، أما البقاء فمحال في هذه الحياة يقول[٣٢] :

انظر إلى هذا الأنام بعبرة لا يعجبنك خلقه وبهاؤه
بيناه كالورق النضير تقصفت أغصانه وتسلبت شعراؤه
أنّى تحاماه المنون وإنما خلقت مراعي للردى خضراؤه
لا تعجبن فما العجيب فناؤه بيد المنون بل العجيب بقاؤه

ويعطي الشريف الرضي عملية الخلق والفناء والخلود بعدا فلسفيا اكبر في قوله[٣٣]

لو رجعنا إلى العقول يقينا لرأينا الممات في الميلاد

فهو في قوله يؤكد النظرية التي تقول : إنّ الموت في الميلاد والميلاد في الموت. هذا النسق الدائري الذي يفضي كل جزء منه إلى الآخر فالميلاد يفضي إلى الموت، والموت يفضي إلى الميلاد أي إلى الحياة الأخرى. في رؤية فلسفية متكاملة حول الحياة والموت وفي هذا المعنى يقول:[٣٤]

والعيش يؤذننا بالموت أوله ونحن نرغب في الأيام والدول

ان هذه النظرة إلى الحياة تؤكد نظرية الشريف مارة الذكر في جزئها الأول ((الموت في الحياة)).

وهذا يعني ان الإنسان يحمل عوامل موته في ذاته كأي كائن حي فهي تولد معه وتكبر ففقدان الشباب والكهولة ثم الهرم وغيرها من المظاهر التي يحملها الإنسان في ذاته والتي تلازمه في حياته ولا تستطيع ردها فضلا عما تجود به الحياة في أحيان كثيرة من عوامل مساعدة على الموت والفناء كالمرض والفقر والحرمان والفاقة والفشل في الحياة وعدم تحقيق الآمال والطموح كل هذه وتلك عوامل مساعدة على ذبول الإنسان وموته وهذه المعاني نجدها مبثوثة في شعر الشريف دون ان يكلفنا عناء البحث عنها كما في قوله مار الذكر :

والعيش يؤذننا بالموت أوله ...

وقوله[٣٥]:

لو رجعنا إلى العقول يقينا لرأينا الممات في الميلاد

وهذه النظرية لدى الشريف تقوم على أسس إسلامية صحيحة منبثقة من طبيعة الحياة التي يعيشها الإنسان، فالإنسان حينما يولد ينتظر موته الحتمي وان كان لا يعلم لان الموت هو النهاية الحتمية له والنتيجة المعروفة ولكن الإنسان في هذه الحقبة الزمنية الممتدة بين الميلاد والموت يحمل رسالة إنسانية عليه ان يؤديها على وجهها الأحسن إذ إن في هذا الأداء اختبار من لدن الخالق كما في قوله سبحانه[٣٦] ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾.

يقال هذا الانتظار أي انتظار الموت بعد الميلاد يقابلَه (الميلاد بعد الموت) الذي بمثل الشطر الثاني من نظرية الحياة والموت.

وهذا يعني ان الامتداد الحقيقي للإنسان هو في حياته الأخرى بعد موته وبعثه ثانية من لدن خالقه وقد تكون هذه الحياة خالدة في جنة أو نار كل حسب ما أداه من حسن عمل في حياته الأولى التي هي حياة اختبار وامتحان وهذه الحياة الدنيا هي مزرعة يكون جني ثمارها في الحياة الآخرة.

وفي ضوء هذا الفهم للحياة والموت نستطيع القول ان الشريف الرضي الذي عاش في القرن الرابع للهجرة ت(٤٠٦هـ) امتلك سمة النضج في رؤيته لنسبية الحياة والموت وامتزاجهما بما يجعل هذا الامتزاج هو (المطلق) وبذلك يكون قد سبق السيّاب على سبيل المثال بأكثر من ألف سنة في أدركه كمون الموت في الحياة وكمون الحياة في الموت[٣٧].

هذه نظرات ثاقبة في فلسفة الحياة والموت قياسا إلى عصر الشريف الرضي اتكأ فيها الشاعر على ثوابت الفلسفة الإسلامية في هذا المجال وإزاء هذه النظريات

تجاه الحياة والموت نجده يفصح عن آرائه في أمور كثيرة كرأيه في الدنيا والدهر والأيام والزمان والحب والفقر والغنى والأصدقاء والأقارب كل ذلك في نظرات فلسفية تنم عن شاعرية فاحصة لما ينتاب الإنسان في هذه الحياة.

من صور الحياة والموت:

لا شك في أنّ حياة الشاعر وما فيها من حوادث ومصاعب تلقي بظلالها على تلك المسيرة وتلون جوانبها فرحا وحزنا، فإذا تتبعنا حياة الشريف الرضي نجدها ملأى بالأحداث الجسام التي تركت بصمتها على حياته فقد توفيت أمه وعمره ست وعشرون سنة وكان لهذه الحادثة اثر كبير في نفسه كما كان لنفي أبيه إلى فارس، وهو لم يزل في مقتبل حياته، اثر كذلك في نفسه وكان لفشله في تحقيق طموحه وقع شديد في نفسه، لذا يصح ان نقول كما قال زكريا إبراهيم: ((ان الجزع من الموت هو أقوى ما يكون عند المتبرمين بالحياة بينما هو لا يكاد يقض مضاجع أولئك الذين يشعرون بقيمتها))[٣٨].

لقد رسم الشريف الرضي صورا قاتمة للموت تنم عن برمه بالحياة وضجره تجاه ما يجري في عالمها، فالموت مغرم بالأنام والأيام تعصف باللئام وبالكرام وكيف يغتر الإنسان بالحياة الدنيا وهو يفر منها إلى الموت يقول[٣٩]:

عجزنا عن مراغمة الحمام ... وداء الموت مغرى بالأنام
واين نحور عن طرق المنايا ... وفي أيدي الردى طرف الزمام
نوائب ما أصخن إلى عتاب ... يطول ولا خدرن على ملام
هي الأيام تأكل كلّ حيّ ... وتعصف بالكرام وباللئام
وما يغتر بالدنيا لبيب ... يفر من الحياة إلى الحمام

وهو في إزاء هذا يرى ان في الموت راحة وخلاصا من عنت الأيام وجورها ووقوفها ضد تحقيق همته وآماله يقول[٤٠]

ألا لا أعد العيش عيشا مع الأذى ... لان فقيد الذل حيٌّ كميت
يخيفونني بالموت والموت راحة ... لمن بين غربي قلبه مثل همتي

ويقول في هذا المعنى أيضا [٤١]:

وموت الفنى خير له من حياته ... إذا جاور الأيام وهو ذليل

وكأنه يذكرنا بقول جده الحسين(عليه السلام) :((لا أرى الموت إلا سعادة، والحياة مع الظالمين برما)).

وبهذا المفهوم الذي يحمله الشريف يكون قد سبق شعراء العصر الحديث الذين امنوا بتلاشي الحياة وانتظروا الموت، وان كثيرا منهم من أشار إلى لا طبقيته فهذا شكسبير يقول[٤٢]:

كل أولاد الثراء وبناته
كشأن منظفي المداخن يعودون إلى التراب

وهم حين يدخلون عالمه لا يخشونه بل يصورونه راحة من عناء الأعباء التي يحملونها من جراء عالمهم المتشابك فجوته (شاعر ألمانيا الكبير) ينتظر الراحة بالموت يقول [٤٣]:

كل شيء مستريح هادئ
وقريبا أنت أيضا تستريح

وكان كيتس شاعر انكلترا الكبير لم يخش الموت لأنه كان مؤمنا ان الموت ((ليس إلا انتقالة من غرفة إلى أخرى))[٤٤]

ومن آرائه في الموت ان الإنسان كلما تقدم خطوة في حياته وعمره المحدود يكون قد اقترب خطوة من اجله المحتوم يقول:[٤٥]:

نخطوا وما خطونا إلا إلى الأجل ... وتنقضي وكأن العمر لم يطل
يأتي الحمام فينسى المرء ميتته ... واغفل الداء ما يلهي عن الأجل
ترخي النوائب من أعمارنا طرفا ... فنستعز وقد امسكن بالطول
يقودني الموت من داري فاتبعه ... وقد هزمت بأطراف القنا الذبل

وهو أي الموت سلطة على الإنسان لا يستطيع ردها وان كان فارسا شجاعا قد هزم بأطراف القنا (الذبل).

ولقاء الموت حاصل لا بد منه فلمَ لا يهيئ الإنسان نفسه للقائه يقول [٤٦]

ومالي من لقاء الموت بد ... فما لي لا أشد له حزيمي

وبالتأكيد فان الاستعداد للموت يعني التزود بزاد الآخرة وهو زاد التقوى كما ورد في قوله تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُواْ فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾[٤٧] .

وهو يطالب الناس ان لا يبالغوا في الفرار من المنايا معتقدين ان ذلك ينفعهم، فليس يفلت منها (الساري المجد) ويضرب مثلا بالملوك الماضين الذي حذروا الموت واستعدوا له يقول[٤٨]

رويدا بالفرار من المنايا ... فليس يفوتها الساري المجد
فأين ملوكنا الماضون قدما ... اعدوا للنوائب واستعدوا
أعارهم الزمان نعيم عيش ... فيا سرعان ما نزعوا وردوا

ومن نظراته للموت والحياة المستمدة من النظرية الإسلامية قوله[٤٩] :

وما يعلم الإنسان في أي جانب ... من الأرض يأوي في الترب منه جانب

إذ وظف الآية القرآنية التي تؤكد جهل الإنسان وعدم معرفته مكان موته وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾[٥٠].

المبحث الثاني

رأيه في الدنيا

الدنيا : الحياة التي يعيشها الإنسان من مولده حتى مماته فهي الزمن بين الميلاد والموت هذا بالنسبة للفرد، وقد تعني حياة الخليقة من البدء حتى يوم البعث والحساب وهي بهذا المعنى تكون اشمل من المعنى الأول المتعلق بحياة الفرد.

وعلى هذا التصور فهي تعني الظرف الزمني الذي يحتوي أفعال البشر وتصرفاتهم وما ينتابهم من مشكلات ومعضلات وأحداث وغير ذلك ويعبّر عنه أحيانا بالدهر والأيام والزمان وكل هذه الصور صور زمنية. وقد تتداخل هذه التعبيرات مع بعضها، والدنيا سميت كذلك لدنوها [٥١] وقد وصف القرآن الكريم الحياة الدنيا بأوصاف كثيرة فهي مرة متاع الغرور قال تعالى : ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٥٢] ومرة لعب ولهو قال تعالى: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾[٥٣] ومرة قليلة المتاع في الحياة الآخرة قال تعالى: ﴿فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ﴾[٥٤] وهذه أوصاف في ذم الدنيا. والدنيا في كل الأحوال ممر يجتازه الإنسان إلى حياة الآخرة، فمنهم من يسعد في هذه الحياة الدنيا ومنهم من تناله نكباتها وآلامها وغدرها وخيانتها كل بحسب ظرفه وملابسات حياته وعلى هذا الأساس كان للشعراء وغيرهم آراء كثيرة في التعبير عن الحياة الدنيا ورسم صورها وكان للشريف الرضي حظه الوافر في التعبير عن آرائه تجاهها من ذلك قوله زاهدا فيها [٥٥]

ما لي إلى الدنيا الغرور حاجة ... فليخز ساحر كيدها النفاثُ
طلقتها الفا لأحسم داءها ... وطلاق من عزم الطلاق ثلاثُ
سكناتها محذورة وعهودها ... منقوضة وحبالها انكاثُ
أم المصائب لا يزال يروعنا ... منها ذكور نوائب واناثُ
إني لا عجب من رجال أمسكوا ... بحبائل الدنيا وهنَّ رثاثُ
كنزوا الكنوز واغفلوا شهواتهم ... فالارض تشبع والبطون غراثُ
أتراهم لم يعلموا ان التقى ... ازوادنا وديارنا الاجداثُ

فالشريف الرضي في هذه الأبيات يصف الدنيا بنظرات فلسفية تمتلئ بإشارات كثيرة مأخوذة من النظرة الإسلامية ففي قوله في البيت الأول (ما لي إلى الدنيا الغرور

حاجة) وصف للحياة الدنيا بأنها دار الغرور كما ورد وصفها في القرآن ﴿وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾[٥٦] ويصفها بان (كيدها ساحر نفاث) إشارة إلى الآية (﴿وَمِن شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾[٥٧] ويصف هدوءها وسكونها مشوبا بالحذر فهي تهدأ لتثور وهي ليس لها عهد بل هي تنقض عهدها وحبالها أنكاث.. ويصفها بـ(أم المصائب) والعجب ممن تعجبهم الدنيا فحبالها رثة ضعيفة لا تدوم. وهم قد أطلقوا العنان لشهواتهم فصارت بطونهم خاوية من التقوى وهم يعلمون ان مصيرهم تحت التراب وان القبور ديارهم الأخيرة.

ويقول في قصيدة أخرى واصفا اخلاق الدنيا بأنها أخلاق مومس يقول [٥٨]

وخلائق الدنيا خلائق مومس ... للمنع آونة وللإعطاء
طورا تبادلك الصفاء وتارة ... تلقاك تنكرها من البغضاء

فالدنيا تجود مرة وتبخل مرة أخرى وكأنها مومس تتمنع مرة وتعطي مرة وتبادل ـ أي الدنيا ـ أهلها الصفاء مرة والبغضاء مرة أخرى إلى درجة ينكرها أهلها من شدة تبعضها لهم. هذا الوصف للدنيا ينم عن فلسفة متدبرة لأحوال الدنيا وتقلبها تجاه أهلها.

يقول مرة أخرى[٥٩]

أبت لقحة الدنيا درورا لعاصب ... ويحلبها من لا يعاني عصابها[٦٠]

فهو في هذا التشبيه أسير حسه البدوي إذ شبه الدنيا باللقحة اي الناقة ذات اللبن التي لم تدر لم يعصب فخذيها ولكنها تدّر لمن يعصبها فالدنيا تجود لمن لا يستحق وتبخل على من يستحق وهو في هذه النظرة إلى الدنيا متأثر بما يعيشه من وضع اجتماعي وسياسي فهو صاحب المواهب والمكانة المرموقة ولكن الدنيا قد حرمته مما ينوي تحقيقه من أمنيات في الوقت الذي جادت لغيره ممن لا يدانيه في نبوغه شيئا.

وفي المعنى نفسه يقول[٦١]:

أرى ذميَ الأيام ما لا يضرها ... فهل دافع عني نوائبها الحمدُ
وما هذه الدنيا لنا بمطيعة ... وليس لخلق من مداراتها بدُّ
تحوز المعالي والعبيد لعاجز ... ويخدم فيها نفسه البطل السردُ

ومعنى ذلك ان الدنيا تقبل على من لا يستحق، وتدبر بوجه من يستحق، تقبل على العاجز وتدتر بوجه البطل الفرد.

ويصفها مرة أخرى بأنها (ملول) تواصل شخصا وتجفي شخصا ملالا وكأنها امرأة عطبول جميلة غانية يقول [٦٢]

هـــــي دنيـــــا ان واصـــــلت ذا جفت هذا ملالا كأنها عطبولُ

وهي أم تثكل أبناءها يقول[٦٣]

ألا إنمـــا الـــدنيا إذا مـــا نظرتهـــا بقلبـــــك أم للبنـــــين ثكـــــول

ويصفها بأنها سم، وخوف، وهم يقول: [٦٤]

نعـــم أنهـــا الـــدنيا ســـمام لطـــاعم وخـــوف لمطلـــوب وهـــم لطالـــب

ويصف الدنيا بأنها ضارة في الأحوال كلها، وليست سارة لأهلها، وهي متقلبة بأهلها تلقي لهم طرفا وكأنها تجذبهم إليها ولكنها إذا أدبرت وأعرضت لا ينفع معها شيء وان كانت الجبال الرواس جواذب لها يقول[٦٥]:

دنيـا تضـرُّ ولا تسـرُّ وذا الـورى كـــل يجاذبهـــا وكـــل عاتـــب

تلقي لنا طرفا فان هي أعرضت نزعـت ولـوان الجبـال جـواذب

وإزاء صفات الدنيا هذه يعبر الشريف عن موقفه الرافض لها يقول[٦٦]:

هيهـات يـا دنيـا وبرقـك صـادق أرجـو فكيـف إذا وبرقـك كـاذب

وانطلاقا من آرائه هذه وقدرته في تشخيص تقلبات الدنيا بأهلها وعدم ثباتها وخيانتها وغدرتها فانه لا يأمن جانبها وان أقبلت عليه يقول [٦٧]:

خطبتنـي الـدنيا فقلـت لهـا ارجعـي إنـــــي أراكِ كثيـــــرة الأزواج

فهو المخطوب هنا لا الخاطب بمعنى ان الدنيا قد أقبلت عليه ولكنه لم ينخدع بإقبالها بل وصفها بأنها امرأة كثيرة الأزواج وكيف تكون المرأة كثيرة الأزواج فهو يعني ما يعنى من تقلب الدنيا وعدم دوامها لأحد كالمرأة الجميلة تنتقي ما يناسبها في كل مرة.

المبحث الثالث

رأيه في الدهر والايام والزمان

الدهر والايام والزمان معاني متقاربة في دلالتها وهي جميعا احد مظاهر الحياة الدنيا وكلها مرتبطة بالزمن وقد أكثر الشعراء من الشكوى من هذه المظاهر لانهم في الغالب اخفقوا في تكوين علاقات متوازنة مع الواقع مما أدى إلى ان يكون هناك خلل مع المجتمع ولا سيما إذا كان المجتمع متخلفا يقف حائلا دون إنضاج العلاقات الإنسانية الرفيعة [٦٨] وهي أي الشكوى من الدهر والأيام والزمان وليدة الحرمان والظلم الاجتماعي والسياسي (والشعور بالحيف وعدم تحقيق الامنيات والاهداف مما يؤدي إلى شيء من الاضطراب النفسي والتشاؤم الذاتي [٦٩] فإذا ادركنا ان الإنسان يعيش تحت سقف زمن محدد وان عمره متناه عرفنا ان وقوف هذه

(الادوات) (الدهر والأيام ..) بوجه الإنسان وحرمانها من تحقيق الأهداف هو مظهر سلبي من مظاهر الحياة.

ولذا كانت نظرة الجاهلي إلى الدهر نظرة سلبية تقوم على ان الدهر والأيام والزمان قوى مسيطرة لها القدرة على افناء الأحياء وهي قوى خارقة لا يستطيع الإنسان ردَّ كيدها ولذا ربط الجاهليون بينها وبين الموت والفناء وقد عبر القران الكريم عن نظرتهم هذه بقوله : ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾[٧٠].

اما في العصر الإسلامي فقد حسن الإسلام من صورة الدهر في نظر المسلمين ففي قوله تعالى: ﴿ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۞ وَآتَاكُم مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَتَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنَّ الْإِنسَانَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ ﴾[٧١] والدهر لصيق المعنى بالليل والنهار وايد هذا المفهوم ما جاء على لسان الرسول الكريم (ﷺ):(يؤذيني ابن ادم بسب الدهر، وانا الدهر بيدي الأمر اقلب الليل والنهار والدهر هو الليل والنهار)[٧٢] وإزاء هذا المفهوم تجاه الدهر تغيرت النظرة إلى الدهر فلم يكن اداة للفناء والعدم مثلما كان اعتقاد الجاهلي ذلك لان الحياة في المنظور الإسلامي مستمرة فالحياة الدنيا تعقبها الاخرة وهناك خلود اما في جنة أو نار وما على الإنسان إلا ان يعد العدة لحياته الأخرى لينال الخلود في الجنة .

ولذلك فان نظرة الشريف الرضي تجاه الدهر والأيام والزمان لم تكن قائمة على انها ادوات فناء وإنما هي في الغالب شكوى من هذه الادوات وبرم لانها لم تسعفه على تحقيق ما يصبو إليه من آمال واهداف فهو يصف الدهر وقد اصبح حائلا بينه وبين مناه وآماله يقول[٧٣] :

ومن لي بتقبيل كف الزما	ن من قبل توقيعها باطراحي
كبا الدهر بيني وبين المنى	وطال بزند الرجاء اقتراحي
أرى الحلم يطوي سباب الرجال	والجهل ينشره في التلاحي
فيحسب عيا سكوت الحليم	ويعطي السفية حظوظ الفصاح

فهو في هذه الابيات يذكر الزمان والدهر وكلاهما قد وقف حائلا دون تحقيق المنى، فالشريف مازال يقدح بزند الرجاء مؤملا ان يحصل على شيء ولكن دون جدوى لان الدهر حال دون ذلك وهو ازاء هذه الفعل نجده يقارن بين الحلم الذي يتصف به هو وبين الجهل المطبق على الاخرين فالحلم يطوي سباب الرجال والجهل ينشرها وهذه مفارقة كبيرة.

فيصبح سكوت الحليم عيّا والسفه فصاحة .

وبين هاتين الصورتين يخفق الإنسان في حياته ويصبح البرم والضجر نصيبه وتكير صورة الصراع بينه وبين الدهر حين يحل الشاعر (عقود النائبات) ولكن يد الدهر (تعقدها عقدا) وحين ينفذ الشاعر من كل السدود ولكنه يجد امامه سدا دون ما يبتغي.

يقول[٧٤]:

كأني إذا جادلت دون مطالبي ... اجادل للايام السنة لدا
احلُّ عقود النائبات وانثني ... وخلفي يد الدهر تعقدها عقدا
إذا ما نفذت السدّ من كل جانب ... رأيت امامي دون ما ابتغي سدّا

فالشريف في صراع وحرب دائمة ومريرة مع الدهر، والدهر ما يلبث يعمل ضده وليس هناك ما يستعين به على حرب الدهور يقول[٧٥]:

أما في هذه الدنيا نجيبٌ ... يساعدني على حرب الدهور
فنشرب آجن الغدران فيها ... إذا ما الذل حام على النمير

فقد وصل به اليأس انه افتقد من يساعده في هذه الدنيا على حرب الدهور ويرى ان الدهر له جيوش من (الكيد) قد حشدها ضده يقول[٧٦]:

قد حشد الدهر عليَّ كيده ... وجاءت الأيام بالزلزال
ومن عجيب ما أرى من صرفه ... قد دَميتْ من ناجذي أناملي
توكسُ أحداث الليالي صفقتي ... لا درَّ در الدهر من معامل

فقد جرد الشاعر من الدهر عدوا حشد كل كيده وساعدته الأيام على ذلك فأرى العجائب من الصروف حتى دميت انامله دما.

ويذم الشريف الرضي الدهر ويرى ان طبعه العداوة فهو يعادي ابناءه، وإذا نظرت إلى ابنائه لا تجد فيهم قرارا ولا ثبوتا بل هم في صراع مع بعضهم، وهم في تحوّل دائم، والشريف يقصد بابناء الدهر اجزاءه ومكوناته فالليل والنهار والصبح والمساء هم أبناء الدهر ومكوناته، لذا فله فلسفة ورأي مقابل هذا التحول والتغيير في الدهر. فلم يغتر بجوده واعطائه الثراء بل ان هذا يزيده نفارا يقول[٧٧] :

لحى الله دهرا كثير العدو ... حتى الظلام يعادي النهارا
تصفحتُ أوجه ابنائه ... فلم يجد اللحظ فيهم قرارا
رأيت الصباح يذم المسا ... ء ذمي ويكره منه الجوارا
ويشحب فيه على انه ... يبدل في كل يوم صدارا
فكونوا كما أنا في النائبات ... آبي مع القدح إلا استعارا

فالصباح يذم المساء ويكره جواره وسبب هذا الذم لأنه يغير اثوابه ولا ارى وجها لهذا التعليل إلا إذا قصد الشاعر (بالمساء) الليل الذي يغير اثوابه فمرة هو مظلم

ومرة مقمر اما الصباح فهو على وتيرة واحدة وهذه الاراء وهذه الفلسفة عند الشريف لافتة للنظر حقا.

ويبلغ كيد الدهر اشده عند الشاعر إذ يقول[٧٨]:

واعظــم مــا ألاقــي ان دهــري يعدُّ محاسني لـي مـن عيـوبي

ويمازج الشاعر بين الدهر والأيام والزمان فمرة خصمه الدهر ومرة الزمان ومرة الليالي والأيام يقول [٧٩]:

ولـي امل كصـدر السيف مـاضٍ سوى ان الليالي من خصومي

فالليالي هنا هي الخصم وقد وقفت دون تحقيق الامل على الرغم من ان همة الشريف ورغبته في تحقيق امله كصدر السيف وقول[٨٠]:

لـم يشـفع الـدهر الخـؤون لمهجـة في العمر إلا عاد وهو خصـيمها
وكانمــا الــدنيا الغــرورة بــردة بيــدي بلــى ويروقنــا تســهيمها

ويرى الشريف الدهر حاكما بين أهل الدنيا ينظر في المظالم في محكمة غير عادلة يقول عاتبا على الدهر وظلمه[٨١]

فـأين مـن الـدهر استماع ظلامتـي؟ إذا نظــرت ايامــه فــي المظــالم
أنـا الاسـد الماضـي علـى كـل فعلـه تمشي شفار البيض فوق الجماجم
ولــم ادر ان الــدهر يخفـض أهلــه إذا سكنت منهم نفوس الضـراغم

فالـدهر لـم يستمع إلـى ظلامـة الشـريف ولـم يعطـه حقـه، واي ظلامـة هـي؟. فالشريف يطلب الموازنة بين البشر واعطاء كل ذي حق حقه حسب مايتمتع به من صفات فيرى انه الاسد الماضي وانه الفارس الذي مشت شفار سيوفه فوق الجماجم ولكنه لم ينل من هذه الدينا ما يتناسب مع مكانته وعزمه وهمته. لان الدهر في حكمه لا يعطي أهمية لمن سكنت نفسه، ولو كانت همته همة أسد.

والشريف دائما في حديثه عن الدهر والأيام والزمان يذكر همته وطوحه ويرى ان الدهر والأيام قد غبطت حقه ووقفت حائلا دون تحقيق المنى والاهداف

ومن آرائه عن الدهر رأيه ان من صفة الدهر الاعطاء والحرمان فمرة يهب ومرة يسلب يقول[٨٢]:

ان قلّص الدهر ما اخفاه من جدة فصـنعة الـدهر إعطـاء وحرمـانُ

وهو أي الدهر نعمة ومصيبة فهو يحمل حدين متناقضين، الفرح والحزن فمرة يجود على أهله بالسرور ومرة بالحزن يقول[٨٣]:

ومــا الــدهر إلا نعمــة ومصــيبة ومــا الخلــق إلا امــن وجــزوع
عجبت لـه يسري بنـا وهو واقف وياكـل مــن اعمارنــا ونجــوعُ

وهذه صورة غريبة للدهر كيف يسري وهو واقف؟ وكيف يأكل من الاعمار وكيف يجوع الإنسان؟.

فالشاعر ربما قصد بالدهر (الزمان) وان كان الزمان متحركا غير ثابت ولكنه بالنسبة لحركة الإنسان من الميلاد إلى الموت كانما هو ثابت لا يتغير فالزمن هو هو ولكن البشر تمر على هذا العنصر وتتعاقب وهو ما يزال ثابتا لم يتغير فهو الحادي بالنعوش يلتهم الاعمار فيشبع ولكن الإنسان يفقد عمره فكانه يجوع.

ويكرر الشريف هذا المعنى وهو كناية عن ذهاب أفراد هذا الجنس واختفائهم عن عالم الدنيا وكان هناك شيئا عملاقا يلتهم هؤلاء يقول[٨٤] :

ما للزمان يلذّ طعم مصابئي فكانه يظمى ليشرب ادمعي
مغرى ينزع قوادحي مستعذبا لتألمي من صرفه وتوجعي
أرعى الذين جنوا له ورق الغنى دوني واعلكني شكيمة مطمعي

فالزمان يتلذذ بطعم المصائب ويظمأ لكي يشرب ادمع الباكين وهو مغرم بنزع القوادم ويستعذب التألم والتوجع من صروفه العظيمة وهو راع الذين جنوا الغنى له ولكنه اعلك شكيمة المطامع لاصحابها ويركز على هذا المعنى بقوله [٨٥]:

نلهو وما نحن إلا للردى أكُل والدهر يمضغنا والأرض تبتلعُ

فهو يصف لهو الإنسان وغفلته عن الموت وكان العمر لا ينتهي وما يدري ان يد الأيام تمضغ جسم الإنسان لتبتلعه الأرض بعد ذلك فالإنسان ابتداء من الطفولة مرورا بالشباب و الكهولة والشيخوخة وانتهاء بالهرم وهو في مراحله المتقدمة يفتقد اجزاء من جسمه، فهو يصاب بالخمول والركود وإذا بكل شيء يتغير ويتبدل حتى اعضاء الإنسان وخلاياه فنحن بمجرد ان ننظر في وجوه الناس نستطيع ان نقدر كم مضى عليها من زمن وسوف يأتي عليها زمن لن تعرف فيه معنى الزمن إذ لابد من ان تختفي لتظهر وجوه أخرى جديدة. وبدون هذه الاحداث المتغيرة لا يمكن ان نشعر بمرور الزمن[٨٦] إذا عرفنا ان من معاني الزمن هو العلاقة القائمة بين التغييرات الحادثة في عالم السماء باجرامه وظواهره الطبيعية وبين الإنسان في تجربة وجوده بين الميلاد والموت [٨٧]

ومرة أخرى يصف الدهر بانه (خليع اللجام) متقلب في مواقفه فمرة يغير على اهله بصروفه ومرة يحامي ويدافع يقول[٨٨]:

هو الدهر فينا خليع اللجام فطورا يغير وطورا يحامي

وهو ازاء مواقف الدهر هذه لا يريد منه أكثر من (حظ الجبان) ولا يريد حظ الشجاع يقول[٨٩]:

أريد من الدهر حظ الجبا ن لا قدر حظ الشجاع الهمام

ومن يدري فان حظ الجبان اوفر من حظ الشجاع الهمام في منظور الشريف لان الدهر حليفه ونصيره وهو دائما ينصر الجبناء ويخذل المبدعين .

ومن آراء الشريف في الدهر ان النقص في العمر وفقر المال والعسر كلها مظاهر حرب الدهر يقول[٩٠]

يقولون نم في هدنة من الدهر آمنا فقلت ومن لي ان يهادنني الدهر
هل الحرب إلا ما ترون نقيصة من العمر أو عدم من المال أو عسر

ولذا كثر ذمه للزمان وتظلمه وحديثه عن معاناته الدائمة فقد جرب كل شيء في هذا الزمان وفشل في كل شيء ولم يحقق ما يبتغي من الامال يقول[٩١]:

قد لبست الخطوب سودا وبيضا وقطعت الزمان طولا وعرضا
ووردت الأمور صفوا ورنقا ورعيت الآمال رطبا وحمضا
وتلفعت ربطة من بياض أنا راضٍ منها بما ليس يرضى
كم مقامي تلقى عليَّ الليالي نوبا لا اطيق منهن نهضا
وخطوبا إذا نحتن من العظـ م فلا بدعٌ ان عرقن النحضا[٩٢]

المبحث الرابع

رأيه في الشيب والشباب

هذه مسألة ترتبط بالموت فالشيب مظهر من مظاهر الموت وهو نذيره إذ يبدأ الإنسان مراحل حياته منذ الولادة حتى الموت مرورا بمرحلة الصبا والشباب ومرحلة الكهولة والهرم التي يصاحبها الشيب عادة، فالولادة حياة، والشباب المظهر الاقوى من مظاهر الحياة، وان كانت الولادة تحمل في ذاتها أسباب الموت والفناء وقد مر ذكر ذلك في أثناء البحث .

أما الشيب فهو مظهر الكهولة والهرم والكبر والضعف وهو مظهر من مظاهر الموت في الظاهر، وان لم يكن هذا المقياس مقياسا علميا صحيحا ولكن قد تعارف الناس على ذلك وحسبوه حقيقة ثابتة فهو نذير الموت وان لم يكن هذا محددا بزمن معين.

ولم يكن موضوع الشيب جديدا عند الشريف الرضي بل هو موضوع قد طرقه الشعراء قبله، وكان لهم وجهات نظر فيه وكذا الحال بالنسبة للشريف الرضي

فقد حمل شعره آراء كثيرة عن هذا الموضوع جاء اغلبها لافتا للنظر، فقد دبَّج الشريف صورا مثيرة في موضوع الشيب حملت معاني مثيرة نمت عن حالة نفسية متأزمة خلقها الوضع العام الذي عاشه الشاعر. وقد كان الموضع السياسي وارتباك القيم وسيطرة الأجانب على دفة الحكم وتقلب الزمان باهله كان لكل هذا دور كبير في طبيعة الآراء التي ساقها الرضي في موضوع الشيب والشباب إذ لم يكن موضوع الشيب والشباب منفصلا عن الحياة العامة لا بل كان على مساس قوي بطبيعة الحياة فلم يكن منفصلا عن المرأة والفقر والغنى والفشل في الحياة وتقلب الزمان وغيرها من موضوعات الحياة. ولهذا كله كان للشريف فلسفته الخاصة في موضوع الشيب والشباب ولكنها لم تكن تسير على منهج ثابت ومحدد. إذ نجد للشاعر آراء ربما تكون متناقضة في مواضع كثيرة فمرة يمدح الشباب ويذم الشيب ومرة يذم الشباب ويستحسن الشيب إذ يرى في الشباب ضلالة وفي الشيب رشدا ووقارا وغير ذلك من الآراء التي سنذكرها عندما نسوق نماذج من شعره.

ويبدو ان هذا التذبذب في الآراء مرتبط بالمناسبة التي ينظم في القصيدة، ففي قصائد الرثاء تبدو اراؤه عن الشيب والشباب وكأنها حكمٌ يسقوقها الشاعر منسجمة مع المناسبة وحين يكون في معرض الشعر الذاتي والوجداني تتلخص آراؤه في ذم الشيب ولا سيما حينما يقترن هذا الحديث بالحديث عن المرأة والحب والهوى، لان المرأة تعزف عن الرجل حين يشيب رأسه وتضعف قواه فهو في هذا المجال يعد الشباب سلطة وسلاحا بيد الرجل على الجنس الآخر. وسنعرض لبعض هذه الآراء

أـ الشيب والمرأة

تشكل المرأة القاسم المشترك الأكبر في آرائه عن الشيب والشباب فهي حاضرة لديه حين يطرق هذا الموضوع وهي الذات المتحدث عنها دائما فهي عازفة وباخلة تجاه من حطت طاقات الشيب في شعره وهي متمنعة وهي صادة وهاجرة إلى غير ذلك يقول الشريف[٩٣]:

ضاع الشباب فقل لي أين اطلبه ... وازوّر عن نظري البيض الرعاديدُ
وجرد الشيب في فوديَّ ابيضه ... ياليته في سواد الشعر مغمود
بيض وسود برأسي لا يسلطها ... على الذوائب إلا البيض والسود
يؤمل الناس ان يبقوا وما علموا ... ان الفتى ليد الاقدار مولود

فضياع الشباب وازورار البيض الرعاديد عن نظره يشكل محنة كبيرة لدى الشاعر تدعوه إلى التساؤل بشوق وقلق عن وسيلة ترجع له هذين المفقودين الشباب والنساء الجميلات فهو يفتش عن وسيلة ناجعة للتعويض عن هذا الفقد الكبير، وما هذا الخسران إلا بسبب الشيب الذي جرد لونه الابيض في فوْدَيْه، لذا فهو يتمنى ان يغمد

هذا البياض فيكون السواد سواد الشعر اكثف من بياضه ليغطيه والنوائب نوائب الدهر وتقلباته هي الأسباب الرئيسة في حضور هذا اللون الابيض في شعره.

وهذا الحادث حادث الشيب هو نذير الفناء إذ لا بقاء ولا خلود كما يتمنى الناس بل انهم مخلوقون للموت. فهو يختم الابيات بحكمه تذكر الإنسان بالموت وربما يكون من مظاهر الموت عنده هو ازوراء البيض وانتهاء ود الأوانس لان ذلك يشكل عنده الفقد الكبير فقد لذة الحياة لانها ستكون موتا وما ذلك إلا بسبب الشيب يقول[٩٤]

لو دام لي ودُّ الاوانس لم ابل بطلوع شيب وابيضاض غدائري
لكن شيب الرأس ان يك طالعا عندي فوصل البيض أول غائر

فهذه جدلية كبيرة بين ظهور الشيب وغياب البيض والاوانس لان الاوانس الجميلات لا يروق لهن الرجال في مرحلة الشيب ذلك لأنه يمثل مرحلة الذبول والانتهاء لا بل ان هذه المرحلة مطمع لسهام المنايا يقول[٩٥]:

وارى المنايا ان رأت بك شيبة جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي وتضل في ليل الشباب الغابر

فعلى ضوء المشيب تهتدي سهام المنايا ولكنها تضل طريقها في ليل الشباب أي عهد الشباب حينما يكون الشعر اسود.

فالعلاقة وثيقة بين المشيب وعزوف النساء وبين المشيب والموت والفناء وهذه كلها ترتبط بعلاقة وثيقة بالحياة. وما يجري فيها من حوادث وخطوب ونوازل.

ويربط الشريف الرضي بين الشيب واسوداد المطالب وعدم تحقيقها وكأنها من الأسباب التي عجلت في ظهور الشيب في رأسه يقول[٩٦]

ابياض رأس واسوداد مطالب صبرا على حكم الزمان الجائر

كل ذلك، الشيب وعزوف النساء والموت وغيرها يجري في فضاء زمن يعيشه الإنسان بين الولادة والموت.

يرسم لنا الشريف صورة تنم عن دهشة النساء وتعجبهن لما راينه من شعر ابيض في رأسه وكأن ظهور الشيب بدعة .يقول[٩٧]

تشاهقن لما ان رأين بمفرقي بياضا كأن الشيب عندي من البدعْ
وقلنَّ عهدنا فوق عاتق ذا الفتى رداء من الحوك الرقيق فما صنعْ
ولم ار عضبا عيب منه صقاله وكأن جيبا للقولب على الطبعْ
وقالوا غلام زين الشيب رأسه فبعدا لرأس زانه الشيب والنزع
تسلى الغواني عنه من بعد صبوة وما باعد النيت الهشيم من النجع
وكنَّ يخرقن السجوف إذا بدا فصرن يرقعن الخروق إذا طلع

فالشيب كانه بدعة من البدع في رأي النساء. وهن يقارنَّ بين عهد مضى وزمن الشيب والشاعر يستغرب من ذلك اذ يقول كن يخرقن السجوف لكي يريني والان يرقعن الخروق كي لا يريننني

ويقول[٩٨]:

فمذ اضاء الشيب فودي تورع الزور عن مزاري
مثل الخيالات زرن ليلا وزلن مع طالع النهار

وما ذاك الازوراء والعزوف عن اللقاء والصدر والمجافاة إلا لان الشيب قد اظهر العيوب التي كان الشباب خافيا لها فمع مرور الزمان قد انحسر الشباب وبدا الشيب ومعه تلك العيوب واولها البياض، بياض الشيب وهو من شر العيوب، وشر الأعداء والشريف يشبه هذا البياض بالنار ولكن هذه النار تضيء العيوب ليس إلا فيقول[٩٩]

ما لقائي من عدو كلقاء من مشيب
موقدٌ نارا اضاءتْ فوق فوديَّ عيوبي
وبياض هو عند البيـ ض من شر عيوبي

ومن آراء الشريف في الشيب والشباب، ان الشباب مصدر قوة وسلاح بيد صاحبه والشيب ليس كذلك يقول مقارنا بين الحالتين[١٠٠]

وإذا دعوت اجبن غير شوامس زفَّ النياق إلى رغاء المصعب
فاليوم يلوين الوجوه صوادفا صد الصحاح عن الطلي الاجرب

وفي المعنى نفسه يقول[١٠١]

ولقد اكون من الغواني مرة باعز منزلة الحبيب الأقرب
اقتادهن بفاحم متخايل فيريبني ويرين لي ويزين بي

ويقول كذلك :

وولاك الشباب على الغواني فبادر قبل يعزلك المشيب

ويرى في الشيب انه يغدر بالشباب ويعد مصابا كبيرا حين تغزو ايامه أيام الشباب متضافرة مع الزمان إذ يستغرب الشريف من ذلك ويعاتب الزمان يقول[١٠٢]

اغدرا يا زمان ويا شباب أصاب بذا فقد عظم المصاب
وما جزعي لان غرب التصابي وحلق عن مفارقي الغراب
فقبل الشيب اسلقتْ الغواني قلىً وامالني عنها اجتناب

ولكن المشكلة عنده هو غدر الايام وغدر الاقارب والاصحاب يقول:

تجاذبني يدّ الايام نفسي ويغدر بي الاقارب والادانـي

ب ـ الموازنة بين الشيب والشباب :

ونرى الشريف مرة أخرى يوازن بين الشباب والشيب فلا يعد الشيب عارا ولا عيبا فلو ابغض النساء فيه الشيب فانه يبغض فيهن الشباب وتعد مرحلة الشيب مرحلة تعقل وحكمة وتفكير صائب وسليم في أمور الحياة وهو زاجر عن الغي والنزق وعن الصبا ومصاحبته لأنه قد عوض عن هذه المرحلة باصحاب هم خير من اصحاب الصبا يقول[١٠٣]:

ارابك من مشيبي ما ارابا ... وما هذا البياض علي عابا
لئن ابغضت مني شيب رأسي ... فاني مبغض منك الشبابا
يذم البيض من جزع مشيبي ... ودلُّ البيض أولُ ما اشابا
وكانت سكرة فصحوت منها ... وانجبَ من أبى ذاك الشربا
يميلُ بي الهوى طربا وانأى ... ويجذبني الصبا غزلا فآبا
ويمنعني المعفاف كان بيني ... وبين مآربي منه هضابا
نصلت عن الصبا ومصاحبيه ... وابدلني الزمان بهم صحابا

ويبدو ان هذه المرحلة جديدة في حياة الشريف فهو يبدو أكثر قبولا لحادث الشيب واكثر بعدا عن هوى الشباب إذ بدا يدافع عن هذه المرحلة مرحلة المشيب وبدا يقدم الادلة المقنعة عن الشيب يقول[١٠٤]:

يهاب سيفك مصقولا ومختضبا ... واهيب الشعر شعر غير مخضوب

فالسيف يهاب عندما يكون مصقولا كذلك الشعر أهيبه غير المخضوب، ويرى ان في أيام المشيب اياما سعيدة يقول[١٠٥]:

وما كل أيام المشيب مريرة ... ولا كل أيام الشباب عذاب

ومرة أخرى يرحب بالمشيب يقول[١٠٦]:

وقالوا الشيب زار فقلت أهلا ... ينور ذوائب الغصن الرطيب
ولم أكن قبل وسمك لي محبا ... فيبعد بي بياضك من حبيب
ولا ستر الشباب علي عيبا ... فاجزع ان ينمّ على عيوبي
ولم اذمم طلوعك بي لشيء ... سوى قرب الطلوع إلى شعوب

فلم يجزع من الشيب الذي هو نور للذوائب، فلم يكن قبل ذلك محبا حتى يبعده عن حبيبه ولم يكن الشباب يستر عيوبه فيكون المشيب مظهرا لتلك العيوب فلم يذم الشريف الشيب لشيء سوى انه يقرب الإنسان من نهايته المحتومة. هذا في ظاهر الكلام ولكن في حقيقة الأمر يبدو الشريف ممتعضا ومستاء من حياته في شبابه وشيبه

فلم يكن شبابه افضل من شيبه فكلاهما سيان عنده وهذا ينم عن حالة الاستياء التي يعيشها الشاعر من زمانه وما يجري فيه. ويقول[١٠٧]:

قل لزور الشيب أهلا انه ... اخذ الغيّ واعطاني الرشد
طارق قوَّم عودي بالنهى ... بعدما استغمز من طول الاود
وقرّ اليوم جموحا رأسه ... جار ما جار طويلا وقصد

فالشيب يأخذ الغيّ ويمنح الرشد ويقوم العود بالنهى ويوقر الجموح..الخ.

والشريف يبدو متناقضا في آرائه هذه فآراؤه في بداية الشباب تناقض آراءه في سنينه الأخيرة من عمره فقد كان يذم طلوع الشيب في رأسه رافضا ذلك رفضا قاطعا واصفا له بالضوء الذي لا يستضاء به يقول[١٠٨]:

لا تأخذيني بالمشيب فانه ... تفويف ذي الأيام لا تفويفي
لو استطيع نضوت عني برده ... ورميت شمس نهاره بكسوف
كان الشباب دجنة فتمزقت ... عن ضوء لا حسن ولا مألوف
ولئن تعجل بالنصول مخلفة ... رومات سوق للمنون عنيف
وإذا نظرت إلى الزمان رأيته ... تعب الشريف وراحة المشروف

فالشيب عنده هو صنعة الأيام لا صنعته ولو استطاع لرمى بياضه بالكسوف وهو يرى ان الشيب الذي حل مكان الشباب ضوء لا حسن ولا مألف. وهو من نتائج الزمان الذي هو دائما تعب للشريف وراحة للمشروف. يقول[١٠٩]:

ضوء تشعشع في سواء ذوائبي ... لا استضئ به ولا استصبحُ
بعت الشباب به على مقةٍ له ... بيع العليم بأنه لا يربح

فقد باع الشباب وابدله بالشيب على كره وهو يعلم انه خاسر لا رابح. ويقول[١١٠] :

وليت صبحا ساءني ضوؤه ... زال وابقى ليله الاليلا

وهو لديه صبح ولكن فيه اساءة.

ج- الشيب والموت:

بمثل الشيب عند كثير من الناس المرحلة الأخيرة من مراحل العمر وقد تطول هذه المرحلة وقد تقصر، ولذا فان اغلب الناس يتطيرون من ظهور الشيب في شعرهم ولاسيما حين يكون ظهوره مبكرا فإذا اشتعل الراس شيبا كان ذلك دليل الضعف والوهن وقد جاء ذلك في القرآن الكريم في قوله تعالى(١١١)﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً﴾ فهو نذير الموت والحديث عن الشيب والشباب مرتبط بالزمان أو الزمن فهو الفضاء الذي يتحرك فيه الإنسان منذ ولادته حتى مماته وعادة ما يقرن

الشعراء الحديث عن الشيب بصروف الزمن ونوازله وكثرة تقلباته ومجافاته لهم ووقوفه عقبة كؤود في طريق تحقيق الامال والاهداف ولا ينفصل ذلك عن الحديث عن الوضع السياسي والاجتماعي الذي يعيشه الإنسان في عصر من العصور إذ يكثر البرم والضجر والتأزم النفسي في أثناء حدوث الكوارث والمحن وسيطرة الأعداء على مقاليد الامور في الدولة مثلما حدث في القرن الرابع للهجرة عصر الشريف الرضي لهذا كله كان للشريف آراء عن الشيب والموت عبر عنها بصورة وجدانية رائعة تنم عن شاعرية متألقة فمن آرائه في ذلك انه نذير الموت يقول[١١٢]:

وارى المنايا ان رأت يك شيبة جعلتك مرمى نبلها المتواتر
تعشو إلى ضوء المشيب فتهتدي وتضل في ليل الشباب الغابر

فالشيب ضوء يهدي سهام الموت نحو صاحبه

ويتمنى عودة الشباب بعد الشيب فلو كان هذا الشباب يفدى لا فتداه يقول [١١٣]

لو يفتدي ذاك السواد فديته بسواد عيني بل سواد ضمائري

ويقترن حالة الشيب هذه بجور الزمان واسوداد المطالب والفشل في تحقيقها يقول[١١٤]:

ابياض راس واسوداد مطالب صبرا على حكم الزمان الجائر

ويقول أيضا [١١٥]

عمر الفتى شبابه وإنما اونة الشيب انقضاء العمر

فهو يعدُّ حقبة الشباب هي العمر الحقيقي للإنسان واما حقبة الشيب فهي دليل الرحيل وانتهاء العمر.

ومن صوره التي تنم عن حالة متأزمه تجاه حادث الشيب وظهوره في رأسه وقد صوره سيفا قاطعا يقطع العنق [١١٦]

تنفس في راسي بياض كأنه صقال تراق في النصول الروانق
وما جزعي ان حال لون وإنما ارى الشيب عضبا قاطعا حبل عاتقي
فما لي اذم الغادرين وإنما شبابي أدنى غادر بي وماذق
تعيرني شيبي كأني ابتدعته ومن لي ان يبقى بياض المفارق

فالشيب سيف قاطع للرقاب وهو دليل غدر الشباب وعند الشريف ان غدر العمر هو ظهور الشيب وهو أعظم من غدر الغادرين لأنه في رايه سيقعده عن مواصلة الطموح ويحجم نفسه الطامحة للمعالي.

ويقول في هذا المعنى [١١٧]

ارنـو إلـى يقـق المشـيب فـلا أرى إلا قواضـــب للرقـــاب تســـلل
واللمـــة البيضـــاء اهـــون حـــادث فـي الـدهر لـو ان الـردى لا يعجـل
ولقـد حملـت شـبابها ومشـيبها فـإذا المشـيب علـى الـذوائب اثقـل

فالمشيب قواضب تسللت نحو الرقاب وظهور اللمة البيضاء هينة لولا أنها تجعل الموت يسرع نحوه.

وله في هذا المعنى [١١٨]

ما نازل الشيب في راسي بمرتحل عنـي واعلـم إنـي عنـه مرتحـلُ
من لم يعظه بياض الشعر ادركه فـي غـرّه حتفـه المقـدور والاجـل
مـن اخطأتـه سـهام المـوت فيـده طـول السـنين فـلا لهـو ولا جـذلُ

فهو يقارن بين ثبات الشيب في راسه ورحيله هو عن هذه الدنيا وهو يعلم علم اليقين انه مرتحل بعد نزول الشيب في رأسه، ويرى ان الشيب موعظة على الانسان ان يتعظ بها والا سينزل به حتفه المقدور على حين غرة. ويرى ان طول السنين قيد من قيود الموت فعلى الانسان ان يعلم ذلك.

وهو دائما يربط الشيب بالموت فهذه جدلية لا تفارقه فالبقاء مع الشيب امر يحول فعلى الانسان ان يدع التفكير في هذا الامر امر البقاء يقول:[١١٩]

وحائـل لـون الشـعر فـي كـل لمـة دليـل علـى ان البقـاء يحـول
نؤمل ان نروي من العيش والردى شـروب لاعمـار الرجـال اكـول
وهيهـات مـا يغنـي العزيـز تعـزز ولا ينجـي الـذليل خمـول
دع الفكـر فـي حـب البقـاء وطولـه فهمـك لا العمـر القصـير يطـول

فتغير لون الشعر دليل على ان البقاء مستحيل وكيف يكون ذلك وهو دليل الموت الذي يشرب اعمار الرجال ويأكلها، وهذه صورة تشخيصية رائعة وهو بعد يذكرنا في البيت الثالث بالفلسفة القرآنية في الآية التي تقول: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[١٢٠] فالكل يموت ولا يحمي العزيز تعززه ولا الذليل خموله، فكم يفكر الانسان في حب البقاء؟.

فالعمر قصير لا يطول ولكنَّ الهم إثر التفكير في البقاء يطول.

رابعا : رأيه في المال والغنى والفقر:

للشريف آراء في المال والغنى والفقر تنبع في اعلبها من فلسفة إسلامية وآراء قرآنية، اذ تشكل هذه الآراء الاسلامية اعمدة وثوابت مهمة في فلسفته تجاه المال والغنى والفقر فمن تلك الثوابت القناعة والزهد في الدنيا وعدم كنز المال وان الراحة

في القناعة وليس في كدّ النفس واجهادها في طلب المال وآراء اخرى نجدها مبثوثة في شعره يقول[١٢١]:

ولســـت بخـــزان لمـــال وانمـــا ... تراث العلى والفضل والمجد ماليا
واتلافـي مـالي عـن حيـاتي الـذُّ لـي ... ولا خيـر ان يبقـى واصـبح فانيـا
وانـــي لالقـــى راحتـــي فـــي تقنعـــي ... وفـي طلـب الاثـراء طـول عنائيـا

فهو غير جامع للمال ولا خازن له وكأنه ينطلق من الآية القرآنية[١٢٢] ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ يَوْمَ يُحْمَىٰ عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ﴾. فلا مال عنده يستحق الجمع الا جمع العَلى والفضل والمجد فهي اشياء لا تفنى بل هي باقية بقاء الايام اما المال بصورته الحقيقية المتمثلة بالذهب والفضة فهذه فانية ولا خير في بقائها وهو يعلم انه فانٍ.

اما راحته فهي في القناعة والزهد في الدنيا اما الجد والكد وطلب الغنى فهذه طول عناء. وفي هذا المعنى يقول[١٢٣]:

ابثك ان المـال عـار علـى الفتـى ... ومـــا المـــال الا عفـــة وقنـــوع
وتشـتاق نفسـي حالـة بعـد حالـة ... وازجرهـــا انـــي اذن لقنـــوع

اذ يعد المال عارا على الرجل في صورته المتمثلة بالذهب والفضة وان المال الحقيقي هي العفة والقناعة فاذا كانت نفس الانسان عفيفة وقنوع فهذا مال لا بعده مال. ويشير الى رغبة النفس في امتلاك المال ولكنه يردعها عن غيّها وهذا برهان القناعة عنده.

اما عن أثر المال في هذه الحياة فله دوران احدهما مشرف واخر ردئ اذ يرفع المال من مكانة السفيه اذا ملأ جيبه ويحطّ من مكانة الحليم اذا خلا منه جيبه فنقصه يحطّ من قيمة الإنسان ووفرته ترفعها ولو كان الإنسان سفيها .

يقول [١٢٤]:

رأيـت المـال يرفـع مـن سـفيه ... وعـدم المـال ينقص مـن حلـيم

وكأنه يتحدث بيننا الان ويذكرنا بحالنا الذي نعيشه في مجتمع القرن الحادي والعشرين وكيف ينظر الناس الى اصحاب الثروات والاموال وان كانوا لا يفقهون من دنياهم شيئا، وكيف ينظرون الى المعدمين وان كانوا عباقرة مبدعين فالغنى يرفع السفيه والعدم يحطُّ من قدر العزيز، وفي المعنى نفسه يقول [١٢٥]:

كـم ذلـلَّ العـدم العزيـز وعظمـتْ ... نفحات هذا المال غير عظـام

وقوله عن المال والاصدقاء[١٢٦]

اذا قـل مـالي قـل صـحبي وان نمـا فلي من جميع الناس اهل ومرحب
غنـى المـرء عـز والفقيـر كأنـه لدى الناس مهنؤ الملا طين اجربُ

وهو في هذين البيتين يرسم لنا صورة واضحة عن قلة الاصحاب المرتبط بقلة المال وهي علاقة طردية فكلما نما المال زاد معه الاصحاب وكلما قلّ،قلّ معه الاصحاب والاصدقاء من ناحية ومن ناحية اخرى فان الغنى عز والفقر مذلة في رأي هؤلاء وكأن الفقير جمل اجرب مطلي بالقار

واذا كان الغنى عز في رأي اصحاب المال فان الفقر والعدم في رأيه مأثرة وفخر، (وبعض المال منقصة وعاب) يقول[١٢٧] :

يريـدون الغنـى والفقـر خيـر اذا مـا الـذل اعقبـه الطـلابُ
وبعـض العـدم مـأثرة وفخـر وبعـض المـال منقصـة وعـابُ

فهو هنا يقارن بين حالتين حالة الفقر والعدم التي يعدها مأثرة ومفخرة، وبين بعض المال الذي يعده منقصة وعابا ويعني في ذلك ان بعض الفقراء والمعوزين لا تجرهم المغريات إلى استعمال وسائل غير مشروعة في كسب المال بل تحسبهم اغنياء من التعفف اشارة إلى الآية ﴿يَحْسَبُهُمُ الْجَاهِلُ أَغْنِيَاء مِنَ التَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَاهُمْ لاَ يَسْأَلُونَ النَّاسَ إِلْحَافاً.... ﴾[١٢٨]

اما بعض المال الذي يكسبه اصحابه بطرق غير مشروعة فهو منقصة وعيب وعن جمع المال وكنزه يقول

واتلافـي مـالي عـن حيـاتي الـدّ لـي ولا خير ان يبقى واصبح فانيا

فهو يرى ان من الافضل انفاق الرجل ماله في حياته فلا خير في بقاء المال من بعد فناء صاحبه وكأنما يردُّ على من يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله في حياتهم الدنيا اذ ستكون بعد ذلك وسيلة للعذاب في حياتهم الاخرة.

ومن ناحية ثانية انه يقارن بين الإنسان الفاني وبين المال الباقي اذ لا خير في مال باق بعد فناء صاحبه.

ومع كل هذا الزهد والقناعة لا يحب الشريف ان يكون معدما من المال فالمال عصب الحياة والوسيلة التي يحيا بها الإنسان ويديم حياته ولكنه ليس غاية ويقرن الشريف مسألة العدم من المال بمسألة الشيب ويعدهما دائين ولكن لا يمكن ان يداويهما طبيب يقول [١٢٩]

آه مـن دائـين عـدم ومشـيب رب سـقم لا يـداوى بطبيـب

خامسا : رأيه في الحب

لا ينفصل الحديث عن الحب عند الشريف عن المرأة والشيب والشباب كما لا ينفصل عن الطموح والاهداف فبين هذه الموضوعات أكثر من وشيمة واكثر من علاقة فالحديث عن الحب يقود إلى الحديث عن المرأة والحديث عن المرأة يقود إلى الحديث عن الشيب والحديث عن المرأة كذلك يقود إلى الحديث عن الامال والتطلعات والاهداف والطموح فكل هذه الموضوعات تربطها جدلية محكمة كما سنرى ذلك في نماذج من شعره هذا من جهة ومن جهة ثانية انني لا اقصد في حديثي عن فلسفة الحب عند الشريف وصف مغامراته العاطفية وتجاربه في الحب او وصف عواطفه المتأججة او علاقاته بالنساء فكل ذلك يدخل في الحب بوصفه تجربة انسانية ولا اقصد كذلك ان الشريف احب او لم يحب وكيف تفسر قصائده المسماة بالحجازيات هل هي حب حقيقي ام غير ذلك؟.

وانما قصدت آراءه الفلسفية الخاصة في الحب، فهل الحب عنده حياة او موت؟ ام غير ذلك ؟ فمنهم من يرى ان الحب موت وان المحب لا يصبح حبه الا اذا ادى به إلى الموت كما هو عند شعراء الصوفية [١٣٠] فهذه آراء فلسفية نجد ما يشابهها في شعر الشريف الرضي.

فمن آرائه الفلسفية في الحب قوله ان الحب داء[١٣١] .

والحب داءٌ يضمحل كأنما ترغو روازحه بغير لغام

فهو شبيه بالناقة التي سقطت اعياءً او هزالاً وقد جفت احشاؤها وذبلت فهي ترغو بغير لغام. وهذا يعني ان الحب يبدأ قويا ثم يضمحل وينتهي اذ تجف العاطفة بمرور السنين ويبدأ التعقل هذا اذا كان هذا الحب حبا مبنيا على العاطفة لا العقل وقد قال بعض العلماء ان الحب العاطفي ينتهي بين الرجل والمرأة بعد اول وصال جنسي وهو قبل ذلك داء يصيب الإنسان وماذا يجني الإنسان من الداء؟ يقول[١٣٢]:

ولي كبد من حي ظمياء اصبحت كذي الجرح ينكأ بعدما رقأ الدم
اصاب الهوى قلبا بعيدا عن الهوى وما كل يبغي السلامة يسلمُ
اجمجم عن عواد قومي علتي وحبكم ذاك الدخيل المجمجمُ

فكبده قد تقشرت كالجرح بعد ان يجف دمه ولم تبرأ بعد فقد اصابه داء الهوى بالرغم من طلبه السلامة وقد كان يخفى داءه وهو الحب عن عواده وزائريه بمعنى انه لم يفصح عن سبب علته لعواده كأنه يخفي داء يتحاشاه الناس.

وهو يتقي الحب كما يتوقى المرض وسلاحه في وقايته عفافه يقول[١٣٣]:

تلثمت من فضل العفاف عن الهوى نجاء من الدنيا اعزّ لثام
وخالفت في ذا الصوم سنة معشر صيام عن العوراء غير صيام

وهو يخالف الصائمين عن العوراء في صيامه لانهم في رأيه غير صائمين حقيقة .

واذا كان الحب يعمر قلوب البعض فقلبه قد خربه هذا الداء يقول[١٣٤]

فمن كان هذا الحب يعمر قلبه فقلبي من داء الغرام خرابُ

وما دام الحب داء فهو معيق عن تحقيق الآمال ومثبط للغرائم وهذا هو المحور الثاني من آراء الشريف عن الحب وراى بين الاثنين علاقة جدلية هي علاقة المرض بالصحة فالحب مرض والبرء من الحب صحة ونقاء.

ويرى الشريف ان بين عزمه وطموحه وبين النساء وهن الطرف الثاني في عملية الحب حروبا يقول[١٣٥]:

بين عزمي وبينهن حروب ان اقواها هو المغلوب

ولا ادري لماذا يكون القوي مغلوبا في هذه الحروب الدائرة على مر الزمان؟.بينه وبين النساء؟ .

ويفصح الشريف مرة اخرى عن رأيه في الحب والنساء يقول[١٣٦]:

ومالي عند البيض يا قلب حاجةٌ وعند القنا والخيل والليل مطلبُ

احبَّ خليلي الصفيين صارمٌ واطيب داريَّ الخباء المُطنَّبُ

فليس الحب هدفه الاساس وليس النساء غايته فلا حاجة له بهن وانما مطلبه القنا والخيل والليل. فهذه اشياء تحقق الطموح وليس النساء. فالسيف احب اصدقائه والخباء المطنب احب دار له. وكل هذه من ادوات الحرب والفروسية والحياة الشديدة البعيدة من اللهو والحب. وربما خالف الشريف الرضي في فلسفته هذه الشعراء الفرسان الذين يكون الحب دافعا لهم في حروبهم وصولاتهم وله الغدر في ذلك فالشعراء الفرسان قد يكون دافعهم في الحرب دفاعهم عن صاحباتهم ومن ثم اثبات ذواتهم ليحققوا بطولة يرجون منها اعترافا من حبيباتهم بهم ولم يكن الشريف الرضي كذلك فله من المكانة والمجد والنسب ما يغنيه عن ذلك فلم تكن المرأة هدفه وانما هدفه اكبر من ذلك فقد تكون الخلافة هدفه الاعلى ولذا فان حاجته ليست عند البيض كما يقول وانما عند القنا والخيل والليل وهذه من وسائل تحقيق السلطة

ويؤكد هذا التنافر بين الحب وبين الطموح فلا التقاء بينهما فاذا كان الوقت وقت اعداد للحرب فلا مجال لذكر الغواني او مصافحتهن يقول[١٣٧]

وما اهوى مصافحة الغواني اذا اشتغلت بناني بالعنان[١٣٨]

وهذه فلسفة يخالف فيها من يقول[١٣٩]

ولقد ذكرتك والرماح نواهل مني وبيض الهند تقطر من دمي

فوددت تقبيل الرماح لانها لمعت كبارق ثغرك المتبسم

ويعد الشغف بالنساء والولع بهن جناية على الرجل يقلل من عزم الشجاع وهمته على الرغم من انه يعترف بشغفه بالحب يقول [١٤٠]

انـي لاكـرم نفسـي ان يقـال جنـى على الفتى العربي الخرد العربُ
انـي علـى شـغفي بالحـب معتـذر من ان يقال شجاع فله الوصبُ

وهذه أهم الآراء التي شكلت فلسفة الشريف الرضي تجاه قضايا الحياة وهناك آراء أخرى في شعره يضيق البحث عن ذكرها.

نتائج البحث:

بعد هذه المصاحبة الممتعة لديون الشريف الرضي التي حاولت فيها استنطاق نصوصه فيما يخص آراءه في الحياة والموت بمظاهرها المتعددة، توصلت إلى ما يأتي

١) تنبثق فلسفة الشريف الرضي في الحياة والموت من ثوابت الفلسفة الإسلامية فهو في أغلب الأحيان يجسد مفهوما إسلاميا منبثقا من آية قرآنية
٢) جسد الشريف الرضي في أرائه عن الحياة والموت فكرة خلود الإنسان بعد موته، أما في جنة أو نار كل حسبما أدّاه من أعمال في حياته في دار الدنيا وبذلك عمّق فكرة الخلود ونفى فكرة الفناء والعدم بعد الموت التي كانت سائدة في معظم الفلسفات قبل الإسلام
٣) اثبت من خلال أرائه فكرة التلازم الجدلي بين الحياة والموت فهما دائما في نسق دائري يؤدي احدهما إلى الأخر فالحياة تؤدي إلى الموت والموت يؤدي إلى الحياة الخالدة .
٤) ركز فكرة الموت في الحياة بمعنى ان الحياة تحمل أسباب الموت متمثلة في المرض والهرم والشيخوخة والعوز وعدم تحقيق الآمال وهي مظاهر تُسلم الإنسان إلى الموت الذي ينتظره.
٥) اكد في شعره ان الارض اساس خلق الإنسان فمنها خلق وفيها يعود ومنها يخرج وهو في هذا قد ولج في صميم الفلسفة الإسلامية التي تؤكد هذه المسألة في آيات كثيرة أشار إليها البحث دون أن يخرج على مفاهيم الفلسفة الإسلامية أو يخرقها بل كانت صوره متوائمة مع مفاهيم تلك الفلسفة.
٦) تبدو آراء الشريف عن الشيب والشباب متناقضة في الظاهر، فتارة يمدح الشباب ويذم الشيب وتارة يمدح الشيب ويذم الشباب، ولكنها في حقيقة الأمر مرتبطة بالموقف الذي يتحدث عنه فحين يكون في موقف عاطفي يتحدث فيه عن المرأة نجده يذم الشيب ويمدح الشباب وحين يكون في موقف يسيطر عليه التعقل والحكمة يكون العكس.

٧) يعزو الشريف الرضي فشله في تحقيق طماحه إلى موقف الدنيا والدهر والايام والزمان ضده فهو في صراع دائم معها وهو المغلوب لا الغالب دائما لان هذه الذوات ديدنها الغدر باهلها. وهناك آراء اخرى ذكرها البحث.
٨) رسم الشريف الرضي صورا رائعة للحياة والموت في مظاهرها المتعددة دون ان يخرج على مفاهيم الفلسفة الإسلامية أو يخرقها بل كانت صوره متوائمة مع مفاهيم تلك الفلسفة.

هوامش البحث

(١) ينظر السياب:عبد الجبار عباس:٢٤٣.
(٢) ينظر: الموت في الفكر الغربي ،جاك شورون ،ص٢٩.
(٣) البقرة /٩٦
(٤) المشكلات الكبرى/ اولف جيحن / ٣٦٥.
(٥) ينظر : الموت في الفكر الغربي جاك شورون /٣٦
(٦) ينظر ملحمة جلجامش / طه باقر /١١٧ط/٣ بغداد ١٩٧٥.
(٧) ينظر المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام : علي جواد ٢٦/٦.
(٨) ينظر: الحياة والموت في الشعر الجاهلي/ مصطفى جاووك /١٦٩.
(٩) ينظر : الصورة الفنية معيارا نقديا /عبد الإله الصانع /٢١٣.
(١٠) ينظر: الشاعر والوجود في عصر ما قبل الإسلام / باسم ادريس قاسم / ٤٧١رسالة ماجستير.
(١١) ينظر ديوان الحطياة ٧٦
(١٢) سورة الملك/٦٧.
(١٣) آل عمران/١٦٩
(١٤) سورة العنكبوت/٦٤، وانظر الكهف/١٨، الروم /٣٠، غافر/١٤، الصافات /١٧، الحج/٢٢.
(١٥) شرح اصول الكافي : المازندراني :٣٩٤/٨.
(١٦) ينظر لحظة الأبدية / سمير شاهين ٢٧٦- ٢٧٧.
(١٧) ينظر الرثاء في العصر الجاهلي / مصطفى عبد الشافعي ١٦٤.
(١٨) ديوان الشريف ٢٤/١.
(١٩) الكهف /١٨
(٢٠) الحج /٢٢
(٢١) الروم٢٠
(٢٢) ينظر الرحمن /٥٥، غافر/٤٠، الحجر /٥٠، الأنبياء/٢١، المؤمنون / ٢٣، الصافات /٣٧.
(٢٣) سورة طه٥٥
(٢٤) ديوان الشريف الرضي /٢٤.
(٢٥) الشرب : القوم يشربون.
(٢٦) سورة الشعراء /٨٨و٨٩
(٢٧) سورة القيامة/ ٢٩و٣٠.
(٢٨) ديوان الشريف الرضي٢٤/١.
(٢٩) سورة المؤمنون/١٠٠
(٣٠) سورة الرحمن/٢٠
(٣١) الميزان في تفسير القرآن ٦٨/١٥.
(٣٢) ديوان الشريف /٢٣.
(٣٣) نفسه ٢٣٢/١.
(٣٤) نفسه ٦٣٨/٢

(٣٥) نفسه ٢٣٤/١.
(٣٦) سورة الملك/٢
(٣٧) ينظر السياب / عبد الجبار عباس ٢٤٣ومصدره بدر شاكر السياب المراهق محمد الجزائري مجلة الآداب عدد/٣آذار ص٢٠-٢٤.
(٣٨) تأملات وجودية،د.عبد الرحمن بدوي، ص١٠٩.
(٣٩) ديوان الشريف الرضي٨٣٠/٢
(٤٠) نفسه :٨٦٤/٢.
(٤١) نفسه ١٦١/١وينظر الديوان ٤٠١/١، ٥/١.
(٤٢) ينظر:المطر والميلاد والموت في شعر السياب:عبد الرضا علي مجلة الاقلام ص١١ نقلا عن الغصن الذهبي/ جيمس فريزر ٢٥١.
(٤٣) نفسه /٢٦٨.
(٤٤) ينظر عشتار ومأساة تموز /د.فاضل عبد الواحد علي ٢٤-٢٥بغداد ١٩٧٣.
(٤٥) ديوان الشريف الرضي ٦٨٣/٢.
(٤٦) نفسه ٨٣٨/٢.
(٤٧) سورة البقرة١٩٧
(٤٨) المصدر السابق ٢٨٣/١.
(٤٩) نفسه ١١٥/١.
(٥٠) سورة لقمان٣٤
(٥١) مختار الصحاح مادة دنا.
(٥٢) سورة آل عمران/١٨٥
(٥٣) سورة الأنعام٣٢،العنكبوت /٦٤.
(٥٤) سورة التوبة/٣٨
(٥٥) ديوان الشريف الرضي ١٧٨/١.
(٥٦) آل عمران/١٨٥.
(٥٧) الفلق٤
(٥٨) ديوان الشريف الرضي ١٩/١.
(٥٩) نفسه ٥٥/١.
(٦٠) العاصب : من يعصب فخذي الناقة لنذر ،اللقحة : الناقة ذات لبن.
(٦١) ديوان الشريف الرضي ٢٥٨/١.
(٦٢) نفسه ٦٥٨/٢
(٦٣) نفسه.
(٦٤) نفسه ١١٩/١.
(٦٥) نفسه ٦٦/١
(٦٦) ديوان الشريف الرضي:٦٦/١.
(٦٧) الديوان ١٨٦/١.
(٦٨) ينظر : ظاهرة الشكوى في شعر بني هذيل /بتول البستاني / رسالة ماجستير /١٧.
(٦٩) ينظر: الشكوى في الشعر الجاهلي / قحطان رشيد التميمي / مجلة كلية الآداب جامعة بغداد عدد١٣/١٩٧٠
(٧٠) الجاثية٢٤
(٧١) إبراهيم٣٣و٣٤
(٧٢) ينظر صحيح البخاري ٥٧٤/٨.
(٧٣) الديوان ١٩٢/١.
(٧٤) ديوان الشريف الرضي:٣٠٨/١.
(٧٥) نفسه:٣٤٠/١
(٧٦) نفسه:٦٤٥/٢.
(٧٧) ديوان الشريف ٣٣٩/١والصدار ثوب راسه كالمقنعة واسفله يغشي/المصدر.

(٧٨) ديوان الشريف ٨٠/١.
(٧٩) نفسه:٨٣٥/٢
(٨٠) ديوان الشريف:٨٣٣/٢.
(٨١) نفسه :٨١٣/٢.
(٨٢) نفسه ٨٧٠/٢.
(٨٣) ديوان الشريف ٤٧٣/١.
(٨٤) نفسه ٤٨٠/١.
(٨٥) نفسه ٤٩٢/١.
(٨٦) ينظر الزمن البايلوجي، عبد المحسن صالح مجلة عالم الفكر المجلد الثامن /عدد:٢ص٦١/الكويت ١٩٧٧.
(٨٧) ينظر مفهوم الزمن بين الاساطير والمأثورات الشعبية :كمال صفوة مجلة عالم الفكر مج:٨ عدد /٢ص٢٣١-٢٣٣الكويت ١٩٧٧.
(٨٨) ديوان الشريف ٨٠٠/٢.
(٨٩) نفسه ٨٠٠/٢.
(٩٠) الديوان ٤١٣/١.
(٩١) نفسه ٤٣٩/١.
(٩٢) النحضى:اللحم.
(٩٣) ديوان الشريف ٢٠٨/١.
(٩٤) ديوان الشريف ٣٧٠/١.
(٩٥) نفسه٣٧٠/١.
(٩٦) ديوان الشريف ٣٧٠/١.
(٩٧) نفسه ٥٠٠/١.
(٩٨) نفسه ٣٩٧/١.
(٩٩) ديوان الشريف الرضي:٤٢/١.
(١٠٠) نفسه ١٤٦/١والزف : الاسراع. والمصعب : الفحل، وغير شوامس : أي غير ممتنعات .
(١٠١) نفسه :١٤٥/١.
(١٠٢) نفسه ٩٩/١.
(١٠٣) نفسه ٧٢/١.
(١٠٤) الديوان ٤٧/١.
(١٠٥) ديوان الشريف الرضي:٤٩/١.
(١٠٦) نفسه:٨٠/١.
(١٠٧) نفسه :٢١١/١.
(١٠٨) ديوان الشريف الرضي :٥٢٠/١.
(١٠٩) نفسه : ٢٠٠/١.
(١١٠) نفسه ٦٨٨/٢.
(١١١) مريم/٤
(١١٢) الديوان ٣٧٠/١.
(١١٣) نفسه.
(١١٤) نفسه
(١١٥) نفسه
(١١٦) الديوان ٥٥٧/٢.
(١١٧) نفسه ٦٣٢/٢ واليقق : شدة البياض.
(١١٨) نفسه ٦٥١/٢.
(١١٩) ديوان الشريف الرضي ٦٦١/٢.
(١٢٠) الرحمن٢٦
(١٢١) الديوان / ٩٨٤/٢.

(١٢٢) التوبة٣٤ـ٣٥
(١٢٣) الديوان ٤٧١/١.
(١٢٤) نفسه: ٨٣٧/٢.
(١٢٥) نفسه ٧٧٣/٢.
(١٢٦) نفسه : ٦١/١.
(١٢٧) نفسه : ١٠٠/١.
(١٢٨) البقرة٢٧٣
(١٢٩) الديوان ٩٨٢/٢.
(١٣٠) ينظر ديوان ابن الفارض ص ٤٢،١٦٨. وينظر الاعمال الكاملة .الحلاج ص ٤٢ و١٦٩.١٧٠
(١٣١) الديوان : ٢.٧٧٢وزحت الناقة اذا سقطت اعياء او هزالا.
(١٣٢) الديوان ٧٦٧/٢.
(١٣٣) نفسه ٢/٨٤٦.
(١٣٤) الديوان : ٤٩/١.
(١٣٥) نفسه ١٦٠/١.
(١٣٦) الديوان ١٦٠/١.
(١٣٧) نفسه ٩١٠/٢.
(١٣٨) العنان: سير اللجام الذي نسك به الدابة.
(١٣٩) ديوان عنترة :١٤٧.
(١٤٠) الديوان١٥١/١.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

(١) الحياة والموت في شعر السياب : د.صالح علي حسين، مجلة كلية المعلمين السنة السادسة عدد/١٧/١٩٩٩م.

(٢) ديوان الحطيأة : تحقيق نعمان محمد أمين طه، مطبعة الخانجي، القاهرة المؤسسة السعودية بمصر ١٩٧٨م.

(٣) ديوان الشريف الرضي : مؤسسة الاعلمي / بيروت لبنان.

(٤) ديوان عنترة بن شداد / تقديم وشرح وتعليق الدكتور محمد حمود ـ دار الفكر اللبناني ط١بيروت ١٩٩٦.

(٥) الزمن البيولوجي : عبد المحسن صالح، مجلة عالم الفكر مج / ٨عدد/٢ الكويت ١٩٧٧.

(٦) السيباب: عبد الجبار عباس / الجمهورية العراقية / وزارة الاعلام دار الحرية للطباعة ١٩٧٢م.

(٧) الشاعر والوجود في عصر ما قبل الاسلام باسم ادريس قاسم / رسالة ماجستير: كلية الآداب / جامعة الموصل ١٩٩٢م.

(٨) شرح اصول الكافي : المازندراني جـ /٨ط١ دار احياء التراث العربي للطباعة والنشر بيروت / لبنان ٢٠٠٠م.

(٩) شعر الرثاء في العصر الجاهلي : مصطفى عبد الشافعي / الدار الجامعية بيروت ١٩٨٧

(١٠) الشكوى في الشعر الجاهلي : د. قحطان رشيد الميمي، مجلة كلية الاداب / جامعة بغداد عدد/ ١٣/ ١٩٧٠م.

(١١) صحيح الخاري : مطبوعات محمد علي صبيح واولاده / ميدان الازهر / مصرد.ت

(١٢) الصورة الفنية معيارا نقديا : د.عبد الاله الصائغ / دار الشؤون الثقافية العامة ط/بغداد ١٩٨٧م.

(١٣) ظاهرة الشكوى في شعر الهذليين : بتول البستاني / رسالة ماجستير ـ كلية الآداب/ جامعة الموصل ١٩٧٨.

(١٤) لحظة الابدية : سمير الحاج شاهين : ط/ ١المؤسسة العربية للدراسات والنشر/بيروت /١٩٨٠.
(١٥) مختار الصحاح :الرازي : مكتبة مصطفى البابي الحلبي واولاده مصر ١٩٥٠م..
(١٦) المشكلات الكبرى في الفلسفة اليونانية: اولف جيجن ترجمة د.عزة قرني توزيع دار النهضة العربية: القاهرة ١٩٧٦م.
(١٧) المطر والميلاد والموت في شعر السياب : عبد الرضا علي : الاقلام عدد/٣السنة /١٣وزارة الثقافة والفنون كانون الاول ١٩٧٧م.
(١٨) المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام : د.جواد علي .ط٢/ مكتبة النهضة. بغداد ١٩٧٨م.
(١٩) مفهوم الزمن بين الاساطير والمأثورات الشعبية : كمال صفوة مجلة عالم الفكر مج/٨ عدد/٢ الكويت١٩٩٧.
(٢٠) ملحمة جلجامش : طه باقر ط/٤ دار الحرية بغداد١٩٨٠م.
(٢١) الميزان في تفسير القرآن : محمد حسين الطباطبائي : مؤسسة الاعلمي للمطبوعات ط/١ بيروت / لبنان ١٩٧٧م.
(٢٢) الموت والعبقرية : عبد الرحمن بدوي : دار العلم بيروت ١٩٧٨.
(٢٣) الموت في الفكر الغربي : جاك شورون : ترجمة كامل يوسف مراجعة وتقديم د.امام عبد الفتاح : عالم المعرفة الكويت ١٩٨٤م.